

مفهوم الثقافة داخل الوعي الإسلامي من منظور مالك بن نبي

The concept of culture within Islamic consciousness from

Malek Bennabi's perspective

تفاحي فتيحة*

fatiha.teffahi@univ-tiaret.dz

جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024 / 10 / 31 تاريخ القبول: 2025 / 05 / 06 تاريخ النشر: 2025 / 06 / 10

ملخص:

إن غياب مصطلح الثقافة داخل الوعي الإسلامي، لحقبة زمنية طويلة حرك مالك بن نبي للحفر عن المفهوم وأصوله التاريخية داخل العقل العربي الإسلامي فحاول من خلال تقديمه للتصورات المختلفة لمعنى الثقافة بُغية الوقوف على مدلولها؛ حيث ربطها بالقيم الاجتماعية والصفات الخلقية، وكشف عن دورها في بناء الحضارة، وأبان عن الاختلاف الجلي بين المفهوم الذي حدده وبين التصور الذي قدمه الغرب، وهي تصورات حسبه لا تتماشى مع واقعنا ولا مع معتقداتنا.

من منطلق أنه متى تمكن المجتمع من توفير الإمكانيات المادية والمعنوية تحققت الحضارة، ومتى فشل في ذلك انحطت وصارت تعاني أزمة حضارية، وهذه الأزمة صانعها الإنسان الذي يعاني في الأصل من مشكلة ثقافة. لذلك كان استحضار فكر مالك بن نبي أمراً ملحاً.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، الحضارة، عالم الأفكار، المنطق العملي، التعايش.

Abstract :

The absence of culture within the Islamic consciousness for a long period of time prompted Malek Bennabi to explore the concept and its historical origins within the Arab-Islamic mind through presenting various interpretations of the meaning of culture, he sought to clarify its significance. He linked culture to social values and morale qualities, highlighting its role in

building civilization. The clear difference between the perception presented by the west is revealed. According to him, these perceptions do not align with our reality or our beliefs.

Bennabi argued that when a society succeeds in providing both material and spiritual resources, civilization flourishes. However, when it fails in this endeavor civilization declines and faces a cultural crisis. This crisis, according to him, is caused by humans themselves, who fundamentally suffer from a problem of culture.

Keywords: culture; civilization; word of ideas; practical logic; coexistence.

1. مقدمة

يَتَجّه معظم المهتمين والمشتغلين بمسائل الإصلاح والتغيير إلى التركيز على مشكلة الثقافة، بغاية تعميق معرفتنا لمفهومها ومقوماتها، وكيفية حماية التراث الثقافي وتحسينه من كل غزو. وقد تعاظم هذا الاهتمام في ظل وجود مؤشرات لصراع فكري وحضاري؛ فالحديث عن الثقافة يقترن بالحديث عن مالك بن نبي الذي يعدّ نموذجا للمفكر الغيور على تراثه، ودينه وأمته؛ حيث كان مهتما بالمشهد الفكري العربي الإسلامي فدعا إلى إعادة إنتاج الحضارة، وربطها بالثقافة؛ كَوّن هذه الأخيرة تساهم في نشأتها وتحافظ على استمراريتها، غير أنه كشف عن غياب المفهوم داخل الوعي العربي الإسلامي، وعمل جاهدا على التصدي للتغريب الثقافي؛ فلا ريب أن الثقافة ترتبط بالهوية والهوض بالمجتمع. فقدم قراءة واعية ومُترنة للثقافة في كتابه "مشكلة الثقافة" الذي يعدّ كتابا تأسيسيا لمشروعه الفكري، ونظرا لارتباط هذه المشكلة بالحضارة، والهوية دعا إلى إحداث قطيعة مع الموروثات الثقافية السلبية وليدة حقبات التخلف والانحطاط، وضرورة تنقية الأفكار القاتلة والمعيقة للبناء الحضاري. وقد اعتمد منهجا مميزا في معالجة مشاكل العالم الإسلامي وتحليلها بعمق.

ولعلّ ذلك يرجع إلى إيمانه بأهمية التوجيه الثقافي في تجاوز الأزمة الثقافية وتحقيق التطور الحضاري. فهل مفهوم الثقافة كان غائبا أم مُغيبا داخل الوعي الفردي والاجتماعي في المجتمع العربي الإسلامي؟ وفيما تكمن المقومات الأساسية لنظرية الثقافة؟

2. مفهوم الثقافة: أخذت الثقافة معاني متعددة بتعدد مستويات حضورها "الثقافة بالمعنى الخاص هي تنمية بعض الملكات العقلية أو تسوية بعض الوظائف البدنية، ومنها تثقيف

العقل، وتثقيف البدن. وبالمعنى العام هي ما يتّصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق، وحس انتقادي، وحكم صحيح، أو هي التربية التي أدت إلى إكسابه هذه الصفات " يُحيلنا هذا التعريف بمعناه الخاص إلى ربط الثقافة بالقدرات العقلية والبدنية للفرد، وبمعناه العام يرتبط أشدّ الارتباط بالفطنة، والتفكير النقدي، والتقدير السليم. (صليبا، 1982، صفحة 378)

أما على مستوى العلوم الاجتماعية ولمحاولة إدراك المعنى الحالي، ودلالة استخدام كلمة ثقافة يجب العودة إلى أصولها، والأسس التي ارتكز عليها مسارها الاجتماعي، وتعبير أكثر دقة النظر والتقصي في جذورها، ثم المفهوم العلمي المرتبط بها، وتحديد السياق التاريخي والدلالي الذي نشأت فيه وتطورت. (كوش، 2007، صفحة 16) من اللافت للنظر تحديد مفهوم الثقافة داخل الحقل الدلالي يجرنا إلى الإقرار بأن تاريخ الثقافة يرتبط دوما بتاريخ الأفكار.

وقد اقترن مفهوم الثقافة في المعجم الفرنسي خلال القرن الثامن عشر بمفهوم الحضارة فاللفظان يندرجان ضمن نفس السياق الدلالي، وتعبيران عن المفاهيم والتصورات الجوهرية. فقد يتم الدمج بينهما، ومع ذلك فهما ليسا مترادفين،

2.1 مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي

قدم مفهوما للثقافة برؤية جديدة علما أن هذا المفهوم ظل مهتما خلال حقبة زمنية طويلة داخل الوعي العربي الإسلامي، إذ لم يكن هذا المفهوم واردا في اللغة العربية، الأمر الذي دفعه إلى التنقيب عن أصوله ومرجعياته، فإذا كانت الثقافة من منظور الغرب ترتبط مشكلاتها بفلسفة الإنسان، ومن منظور الماركسي ذات صلة بفكر المجتمع فهي حسب مالك بن نبي فهي جملة من الخصائص الخلقية، والمبادئ المرتبطة بالمجتمع، يبدو تأثيرها جليا منذ الولادة، وبطريقة لاشعورية يرتبط سلوكه بنمط العيش السائد في بيئته التي نشأ فيها. باختصار إنها تمثل البيئة التي تؤسس كيان الفرد (بن نبي، مشكلة الثقافة، 1984، صفحة 74).

وهكذا يصبح مفهوم الثقافة يشمل فلسفة الإنسان والمجتمع أي الفردي والاجتماعي معا، والمحرك الروحي يؤدي إلى انسجامهما في كيان واحد. فعلى المستوى الفردي لا يمكن للإنسان أن يعيش وحيدا بمعزل عن غيره، فحاجته للآخرين جزء أساسي من طبيعته، والمجتمع بدوره

يبني أسسه من خلال تفاعل أفرادهِ. فهي بمثابة الآليات التي يسير وقّعها المجتمع لكي ينظّم حياة الأفراد حتى تحقّق الثقافة وظيفتها، وتساهم في تطوير معالم الحضارة؛ لذلك فمن الضروري بما كان تطهير المفهوم من اللبس الذي اكتنفه؛ مادام كل تفكير في مشكلة الحضارة يرتبط بالثقافة.

وفي هذا السّياق يراودنا التساؤل التالي: ما هو السّبب وراء تأخّر ظهور كلمة ثقافة في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة؟ إن مفهوم الثقافة دُخِل على اللغة العربيّة تم استيراده من أوروبا. ويقرّن الكتاب في العالم العربي لفظ الثقافة باللفظ اللاتيني culture وكأنّ لفظ ثقافة لا يمكن كتابته إلا بصورته اللاتينية، وكأننا نُقرّ أيضا حاجة كلمة ثقافة للاقتراح بنظيرتها culture بغية تحديدها ودعم وجودها. تم اشتقاق كلمة culture التي ذكرناها من الكلمة اللاتينية cultivare وتدلّ على الزراعة. فالواقع أن الأوروبيّ عامة والفرنسي خاصة هو (إنسان الأرض)، وأن الحضارة الأوروبيّة هي (حضارة الزراعة)؛ وعليه فإن العمليات التي تستنتج من الأرض خيراتها كالحرث والبذر والحصاد، لها بالضرورة دور هام في نفسية الإنسان الأوروبي (بن نبي، مشكلة الثقافة، 1984، صفحة 26) فما العلاقة بين الزراعة والثقافة؟ لفظة الزراعة تم استخدامها مجازيا، مثلما تُنتج الزراعة المحاصيل، تُنتج الثقافة الأفكار أيضا، فمفهوم الثقافة هو نتاج من نتائج عصر النهضة؛ حيث شهدت أوروبا خلال هذه الفترة زحما من الإبداعات الفكرية والأدبية والفنية.

فمن منظور مالك بن نبي أن كلمة ثقافة لم تحوز على القوة والوضوح في القاموس العربي الذي نالته في اللغات الأوروبيّة، ومع ذلك فالتأخر في إدراك المفهوم لا يعنى أنه غير موجود بل إن الثقافة حاضرة كممارسة وغائبة كمفهوم داخل الوعي العربي الإسلامي، لذلك فهي تحتاج إلى وعي اجتماعي لتحقيق حضورها.

ما يفسّر أن فهم الثقافة ووعيا لابد من تحديدها كعامل تاريخي، فالتاريخ يتسم بالتحوّلات الكبيرة والمهمّة، وهي تشكّل منعطفات حاسمة في مساره؛ لذلك تتطلب فهما عميقا واستيعابا للتغيرات الحاصلة. حيث حدّد مالك بن نبي مفهومها في التاريخ باعتبارها كتلة من المشاعر المشتركة والعادات والتقاليد والفنون والعقبيّات. كما وضح أيضا مفهومها التربوي كدستور ضروري للحياة العامة بكل ما فيها من تنوّع فكري واجتماعي، فهي لا تقتصر على مجتمع دون

آخر، وليست حكرا على طبقة دون أخرى بل هي الجسر الذي يعبره الفرد والمجتمع نحو الحضارة والتمدن.

فهو لم يكن مهتمًا بمفهوم الثقافة بالمفهوم في حد ذاته، بل بضرورة وعيها وإدراكها والتخطيط لها من منطلق ذلك الوعي، على هذا الأساس يعالج مفهوم الثقافة من ناحيتين أولا بالاستناد إلى تفسيرها كواقعة تاريخية. وثانيا على أساس مهمتها في البناء والتخطيط بالنظر إلى كونها منهج تربوي.

3. بين الثقافة والعلم: أية علاقة؟

حاول مالك بن نبي إزالة اللبس العالق في الأذهان من خلال التمييز بين الثقافة والعلم؛ بسبب الخلط بين المفهومين، والاعتقاد بأن الثقافة مجرد معرفة في قوله "إن العلم يُقدم المعارف العلمية بمقتضى الوضع الاجتماعي. والثقافة تُغني السلوك وتحقق له الاكتفاء الذاتي الذي يكمن داخل الفئات الاجتماعية. فالتطور العلمي مرهون دوماً بالبيئة الثقافية التي ينشأ فيها، فهي بمثابة الإطار الذي تنتعش فيه الابتكارات العلمية، وفي المقابل فإن التطور العلمي لا يؤدي إلى تشكيل الثقافة من زاوية أن هذه الأخيرة أوسع وأشمل من حصرها في العلم (بن نبي، 1995، صفحة 54) وفي ذات السياق يرفض مالك بن نبي استخدام مصطلح العلم للدلالة على الثقافة، فالبعض قد تورط في هذا الاستعمال. فهما ليسا مترادفين؛ لذلك فليس بإمكان العلم أن يؤدي مهمة الثقافة، ولو نظرنا إلى العلم فإنه يهتم بعالم الظواهر المادية، فالعالم مهمته رصد الأشياء، ولا يخرج عن نطاق طرح السؤال من قبيل "كيف؟" فهو يمنح المعرفة الإحكام والمهارة بناء على المستوى الاجتماعي الذي يجري فيه البحث العلمي.

أما الثقافة أوسع في مدلولها من العلم، إذ يُعد هذا الأخير جزءا منها. لأن مفهوم الثقافة كما أسلفنا سابقا يرتبط بصورة أكبر بالسلوك والحياة، ويشكل الإنسان الواعي الذي يراقب ذاته، والثقافة تمنح الإنسان القيم التي تؤسس الحضارة. يبدو هذا التمييز بالنسبة لمالك بن نبي بالغ الأهمية عند رسم خطط تهدف إلى الارتقاء بالحضارة.

يسرد مالك بن نبي حادثة كانت وقعت مع أحد الصحفيين حين طرح سؤالاً حول مفهوم الثقافة على إدوار هوريو عميد كلية الآداب في ليون، ورئيس البرلمان الفرنسي فأجابته "الثقافة هي ما يبقى عالقا بالأذهان عندما ننسى ما تعلمناه على مقاعد الدراسة والجامعات" (مالك،

2002، صفحة 92) فالثقافة لا تقف عند حدود ما يتعلمه المرء في المدارس، ولا مجرد معارف نحصل عليها بمطالعة الكتب والروايات. ولا هي حشو وتكديس لكم هائل من المعارف التي تعرضها المنظومة التعليمية؛ كون التعليم لا يقوم بوظيفة ودور الثقافة.

4. الثقافة وعالم الأفكار

يُعد عالم الأفكار عامل مهم إلى جانب عالم الأشياء؛ لأن فاعلية الأفكار تمتد لتساهم في تطوير السياسة والاقتصاد والاجتماع وكل مناحي الحياة، على اعتبار أنها تعبر عن نمط حياة يطبع السلوك الاجتماعي يرتبط عالم الأفكار بالنظام الاجتماعي السائد في شتى حالاته ركود وخمود، حركة وتطور. وكل تحوّل يطرأ على عالم الأفكار يُفضي إلى تحولات على مستوى السمات الاجتماعية، ويحصل ذلك بالتوازي في نفس الاتجاه؛ وعليه يعتمد كل مجتمع في سيرورته على الأفكار كآلية للتطور والرقى، خاصة وأن المنعطفات المختلفة لازدهاره هي في الواقع انعكاس لمسار التطور الفكري ذلك أن للأفكار دور في بناء الثقافة. (بن نبي، 1984، صفحة 13)

فهي ترتبط بالأفكار البناءة والمتطورة التي تساعد على النهوض بالمجتمع، لا الأفكار في صورتها الهدامة المعيقة للنمو الاجتماعي، وعلى نخبة المجتمع أن تحمل على عاتقها بناء عالم الأفكار لأنه دورها الأساسي، وعليها أيضا تحرير الأذهان من البلبلة التي تشوبها. وكل ذلك يبرر أن للثقافة قيمة فردية واجتماعية، ومن الضروري أيضا أن تحمل الأفكار في طياتها نتائج عملية وواقعية بعيدا عن التصورات الفلسفية والأفكار الميتافيزيقية، هذا ما بيّنه بن نبي حينما صرح انه من الضروري بما كان إمداد القيم الإسلامية بما يدفع بها نحو مجابهة متطلّبات العصر المتجدّدة، فلم يعد يُجدي اليوم الحديث عن قداسة هذه القيم، ولا نعني بذلك تقديم تنازلات على حساب كل ما هو مقدّس، بل نبغي من وراء ذلك تحرير كل ما هو مقدّس من المغالاة بالشعور بالرضا الزائد، والاكتفاء بما نحوزه.

(بن نبي، 2002، صفحة 112)

فالمسلم اليوم بحاجة للرجوع إلى الروح الحقيقية للدين الإسلامي، والعمل بما جاء فيه، وفي الوقت ذاته الاستفادة من تجارب الآخرين شريطة أن نُكيف الحلول المستعارة لتتناسب مع أصول وقيم المجتمع حتى تتحقق الفعالية. ولمواجهة أية معضلة اجتماعية -مهما كانت طبيعتها- فلا ينحصر العمل على تصور حلول أثبتت فعاليتها خارج بلادنا، فلا نشكّك في

نجاحها، بل تحقق نجاحا داخل سياقها الاجتماعي والبيئة التي نشأت فيها، وفي طاقتها الكامنة فيها والتي تمنحها الحياة والوجود. (بن نبي، 1986، صفحة 103)

بناء على ذلك فمن الضروري مراعاة مدى صلاحية الأفكار المقتبسة، وتناسبها مع ظروف، وحاضر المجتمع المُتلقّي لكي تحقق فاعليتها الاجتماعية. وقد تحدث مالك بن نبي عن أهمية توجيه الأفكار؛ (بن نبي، 1984، صفحة 67) لاسيما وأن مشكلة الثقافة من الناحية التربوية تتعلق بقيادة الأفكار، وهي تعبر بصورة عامة على البناء والمنطلق السليم، والانسجام في الغايات.

هكذا يقتضي تنظيم حياة الأفراد والمجتمعات الاقتران بنظام الأفكار. ويميز في هذا الصدد بين نوعين من الأفكار: أفكار ميتة وأفكار فكرة مُميتة، فالأولى هي التي انحرفت عن أصولها الحقيقية وباعت قيمها، حادت عن مبادئها السّامية، وبالتالي استأصلت جذورها من عمق الثقافة الأم التي تعبر عن الجوهر الخالص الذي يجسد هويتها. بينما الفكرة المميتة أضاعت شخصيتها وهويتها وقيمتها، بعدما أضاعت في طريقها جذورها، وبالرغم من هذه الأفكار القاتلة إلا أن الثقافة تبقى تحافظ على عالمها المتميز. (بن نبي، 2002، صفحة 153)

عطفا على ذلك فإن فالأفكار الميتة مرتبطة بما أطلق عليه فترة ما بعد الموحدين، والأفكار المميتة والتي يصطلح بالقاتلة تشمل كل ما هو مستورد ومقتبس وله تأثير سلبي على هوية وكيان المجتمع، لأنه يمكن أن تكون الفكرة فعالة في محيطها الغربي، ولكنها تفقد هذه الفعالية بمجرد فصلها عن جذورها الأصلية، ونقلها إلى مجتمع آخر له خصائصه التي تميزه عن غيره.

وفي نفس السياق عاين مالك بن نبي واقع الإنسان المسلم الذي يعاني عقدة التخلف ويرد هذا الأخير إلى التأخر الاقتصادي أو ما يسميه "عالم الأشياء" مما يؤلّد بداخله عقدة النقص وتنتابه المشاعر السلبية كالشعور بالتشاؤم، في الوقت الذي كان يجب عليه رد هذا التخلف إلى عالم الأفكار والاشتغال عليه؛ فالفاعلية الفكرية هي أساس النجاح المادي والاقتصادي، بدليل أن بعض الدول العربية والإسلامية تمتلك ثروات هائلة ومع ذلك فهي لا تنتج لأن الفكرة لم تتحول إلى سلوك يعتمده كآلية للنشاط الاجتماعي والاقتصادي، مما يعيق التغيير والنهوض بالمجتمع. وهنا يبدو الاختلاف جليا بين العالم الغربي والعالم الإسلامي لا في فهم الثقافة بل في كيفية التعامل مع المشكلات التي تواجهه.

5. مقومات الثقافة

ترتكز الثقافة في نظر مالك بن نبي على جملة من المقومات حصرها في أربعة عناصر أولها الأخلاق لتعزيز العلاقات الاجتماعية، عنصر الجمال لتأثيره على الذوق العام، المنطق العملي لارتباطه بالواقع، والصناعة. ونظر لدورها في بناء معالم الحضارة والنهوض بها سوف نعرضها مفصلة.

5.1 المبدأ الأخلاقي

تعتبر الأخلاق دستورا اجتماعيا من منطلق أن تحقيق التماسك، والترابط الاجتماعي ينشأ في بيئة أخلاقية، وإحراز أي وحدة تاريخية لن يحصل إلا في وسط أخلاقي؛ حيث ينظر مالك بن نبي إلى الأخلاق بنظرة اجتماعية لا برؤية فلسفية كما جرت العادة في العديد من السياقات. لأن الأخلاق بمثابة الروح التي تسري في المجتمع، ففعاليتها وقدرته على تحقيق أهدافه يتأثر بصورة كبيرة بالمبادئ الأخلاقية التي تحكمه.

فكلما كان تأثير السلطة الأخلاقية محكما، كلما ساهم ذلك في تعزيز هذه الفعالية، وعلى خلاف ذلك فإن ضعف تأثيرها يؤدي إلى تراجع المجتمع، ويهدد سلامته، وعليه لا يمكن النهوض به دون هذا الجانب الروحي. وللدين تأثير في الارتقاء بالعلاقات الاجتماعية لقوله تعالى ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال: 63)

فكل حضارة تحمل روح الدين أو العقيدة، ولا يجب الاعتقاد أن المشاريع الاجتماعية أسسها مدنية بل تعود في أصلها إلى أصول دينية ويضرب مثلا على دور الحضارة بفرنسا يبدو في أول وهلة مشروع اجتماعي أساسه مدني، ولكنه في حقيقة الأمر يعود إلى أصول مسيحية بدليل إنشاء القديس فانسان دي بول *Vincent de Paul* حماية الأطفال المشردين. إن بأس الحضارة وقوتها مرتبط أشد ارتباطا بالدين، فروح العقيدة الإسلامية وحدت بين المهاجرين والأنصار، فالمعاملات الأخلاقية أسست لأول مجتمع إسلامي مترابط. لاسيما وأن الشبكات الاجتماعية يزداد ارتباطها، ومفعول نشاطها من خلال احترام المبادئ الأخلاقية والالتزام بها، وإيقاظ سلطة الضمير لدى الأفراد.

ويشير إلى حال المجتمع الإسلامي وما يعانيه من أزمات على مختلف الأصعدة وشبهه بالسفينة وهي على مشارف الغرق، والخطر محققا بها. فكيف ستنجو؟ طوق النجاة حسبه بالدين

والحضارة، إن ثبات المجتمع الإسلامي واستمراره يستوجب العودة إلى مبادئ وتعاليم الدين الإسلامي واستثمارها في حياته العملية (بن نبى، 2002، صفحة 61)؛ لأن الدين هو المأمن والملاذ لكل المجتمعات التي تتوق إلى البقاء.

فالعالم الإسلامي يكابد اليوم أزمت حقيقية، وأخطارا تحدى به، لابد من مواجهتها ولن يتحقق ذلك بتضافر كل الجهود، وبحضور عاملين أساسيين هما الدين والحضارة، فالدين هو بمثابة الطاقة التي تساعد المجتمع على تخطي الأخطار والوصول بكل أمان إلى ملاذه الموسوم بالحضارة، وبالتالي تكفل هذه الأخيرة الضمانات الاجتماعية لكافة الفئات داخل المجتمع.

5.2. الذوق الجمالي

للبعد الجمالي دور في صناعة الأفكار الإيجابية، فاستقراء واقع المجتمعات يؤكد أن النظرة إلى فكرتي الجمال والقبح تنعكسان حتما على الأفكار والأعمال والإبداعات التي تحققها، فإذا كان المجتمع يتذوق الجمال سيتجلى ذلك في جمال العمران، ونظافة الشوارع وتناسق البناءات.. الخ. أما مناظر القبح تعكسها الشوارع المتسخة، والقمامات والقاذورات المرمية بالأزقة، والبناءات العشوائية التي تشوه صفاء البلاد. فالجمال هو جمال الأفكار، وهذه الأخيرة أساس الأعمال، فلا عمل دون فكرة، مادام الإحساس الجميل تتولد عنه أفكار جميلة، وهي بدورها تُنتج أعمالا جميلة وللجمال دور اجتماعي لارتباطه ببناء الأفكار .

غير أن النظرة للنشاط الفني تختلف من مجتمع إلى آخر فمثلا المجتمع الغربي مارس فن تصوير المرأة العارية بسبب دافع جمالي، في المقابل لم يُخلف الفن الإسلامي آثارا في التصوير مثلما نراه في متاحف الدول الغربية؛ لأن الوَازع الأخلاقي يحول دون حرية الفنان في التعبير عن كل ألوان الفن. وبالتالي فإن الاختلاف في النظرة وفي أسلوب التعامل من الأبعاد التي تشكل الثقافة-ونقص هذا البعد الجمالي والبعد الأخلاقي؛ فسوف لن يتطوران في منحنى واحد (بن نبى، 1986، صفحة 91).

هكذا إذن ترتبط الأفكار بالحس الجمالي ويحدد قيمتها الجمالية. فالحس المفعم بالجمال يُؤلد بداخلنا طاقة إيجابية فعالة تنعكس على أداءنا وسلوكنا، وطريقة تفكيرنا، وفي كل ما يتعلق بأسلوب حياتنا، بداية من ملابسنا ومظهرنا، وتنظيم بيوتنا، والحرص على نظافة بيئتنا، وانتقاء العادات التي تُقوّي فينا الحس الجمالي. ونظرا للقيمة الاجتماعية التي يكتسبها

الذوق الجمالي؛ حيث عمّدت بعض المجتمعات الأوروبية إلى تغريم كل من يشوّه الوجه الجميل للبيئة، حرصا منها على الحفاظ على التوجيه الجمالي الذي يطّبع ثقافة المجتمع مادام مرتبطا بالسلوك الاجتماعي. على خلاف المجتمع الإسلامي الذي يعاني أزمة جمالية تبدو جلية في ملامح بيئتنا فما أحوج حاضرنّا لهذا البعد القيّم؛ لأنّ حضوره مفيد في تسوية العديد من المشكلات الجزئية داخل ثقافتنا (بن نبي، 1986، صفحة 92)، والتي تكتسب مكانة محورية في تشكيل سلوك الفرد.

فالمجال الحضاري بكل عناصره متصّل بالذوق الجمالي ويقدم مالك بن نبي مثالا عن الطفل الذي يرتدي الملابس القذرة، يحمل في المجتمع صورة القبح والتعاسة، هناك من ويعتبره ضمن السواعد التي لا دور لها في حركة التاريخ، ولكنه في الواقع لا يحرك شيئا. ومهما فعلنا فإنه لن يتغير بل إنه سيذكرنا دوما بإهمالنا لحياتنا.

على الإنسان أن يملك ذوقا ومظهرا جماليا؛ ويتخذ أسلوبا حياتيا لأنّ الذوق الجمالي يكسبنا الثقة بالنفس، واحترام الغير، فجمال البيت والشارع والساحات العامة يُشعرنا بنوع من الانضباط الاجتماعي، فالتوجيه معلّم من معالم الحضارة. كذلك إذا صادفك شخص رث الثياب، قذر الجسم يترك في نفسك انطباعا سلبيا على خلاف شخص أنيق الثياب، نظيف الجسم فإنك تُكوّن عنه صورة إيجابية.

لقد فرضت موسكو في تسعينات القرن الماضي جملة من الضوابط تفرض على السكان الالتزام بها وتتعلق بنظافة مدينتهم، تجنب البصق، ورمي بقايا السجائر على الأرصفة، ضرورة تفادي تعليق الملابس على الشبايبك الخارجية والتي تشوه المنظر، منع ركوب السيارات العامة بملابس العمل المتسخة. حيث تفرض غرامات مالية على المخالفين لها. وهكذا يكون لفكرة المحيط الاجتماعي دور في صقل الثقافة.

يقر مالك بن نبي على وجود علاقة وطيدة بين التوجيه الأخلاقي والجمالي حيث أن هناك ارتباط وثيق بينهما، وعلاقة عضوية بينهما، على أساس أنهما مصدران يطبعان الثقافة، (بن نبي، 1986، صفحة 100) وينعكس ذلك بلا شك على سلوك الأفراد، كما يحددان مسار الحضارة. فبالتلاحم بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي ترتقي بالثقافة وتنتهي لصناعة الحضارة. وإن الاختلاف في تقديم أحد المبدأين عن الآخر ينجر عنه بالضرورة تباين في النتائج.

وقد أورد في كتابه "شروط النهضة" مقارنة بين المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي، -كما ذكرنا سالفًا- فالأول يمنح الحرية للفنان في الإبداع كتصوير جسد المرأة، ومُحرّكه جمالي، بينما الأمر مختلف بالنسبة للثاني؛ فإنه يرفض مثل هذه الصور بسبب الرادع الديني والأخلاقي. وهذا لا يعني أن الثقافة الإسلامية تفتقر للصورة الجمالية بل إن ترتيبها للمعايير القِيَمِيّة يجعل من الحقيقة أكثر أولوية من عامل الجمال. (بن نبي، 1986، صفحة 102)

وهنا يحيلنا مالك بن نبي إلى الاختلاف في ترتيب هذين المبدئين في سلم القيم؛ حيث قدم المجتمع الغربي عنصر الجمال على المبدأ الأخلاقي وكان لذلك تأثير على علاقة الأوربي بغيرة؛ لأن حسبه كل ثقافة متسلطة ومهيمنة ينتعش فيها العنصر الجمالي على حساب العنصر الأخلاقي، ولاسيما في عصر النهضة وبالتالي تنتهي إلى المجون.

وفي المقابل فإن المجتمع المسلم فإنه يُنزع إلى تقديم المبدأ الأخلاقي على الذوق الجمالي لينتهي هو الآخر إلى التقهقر والتراجع "نرى كيف أن ثقافة تمنح الأولوية لذوق الجمال، تغذي حضارة تنتهي إلى فضيحة حمراء...ومن ناحية أخرى، كيف أن الثقافة التي تمنح الأولوية للمبدأ الأخلاقي، تكون حضارة مآلها التحجر والجمود" (بن نبي، 1986، صفحة 104)

5.2 المنطق العملي

يرتبط المنطق العملي بالواقع والممارسة، وبمختلف الجوانب الحياتية، في هذا الإطار يتحسر مالك بن نبي على حال واقعنا الذي يفتقد لهذا المنطق الذي يُبنى على العمل والفعالية والإيجابية في السلوك، (بن نبي، 1984، صفحة 86) كون المسلم يحيا حالة من اللافاعلية، وسلوكه اليومي أقرب إلى الحديث المجرد منه إلى التطبيق، فهو لا يفتقد إلى منطق الأفكار بل إلى منطق الإنجاز، وهذا من شأنه أن يعيق التغيير والنهضة، فالأفكار المجردة لا معنى لها إذا لم تتحول إلى نشاط عملي، وتحقق غاياتها المنشودة.

في إطار الحديث عن المنطق العملي يجري مالك بن نبي مقارنة بين الفرد الأوربي والمسلم، فالأول يحاكي نشاطه الأفكار التي يؤمن بها، بينما الثاني يعوّل على الكلام المجرد، وهذا هو بالفعل سبب تخلفه وتقدم غيره. إننا بحاجة اليوم إلى عقل تطبيقي ديناميكي لا إلى عقل نظري ميتافيزيقي. وهنا تتضح الصورة التي يجب رسمها حول عالم الأفكار وعالم الأشياء والعلاقة بينهما؛ فهو يطالب المسلم اليوم بأن يُحوّل الفكرة إلى سلوك عملي لمواجهة مختلف الظروف، لهذا ويشدد على ضرورة تعزيز الوعي لدى المسلم بواقعه الراهن الذي يحتاج منه

إلى تغيير وصناعة واقع جديد يتماشى وروح العصر مع المحافظة على مقومات الهوية الإيجابية.

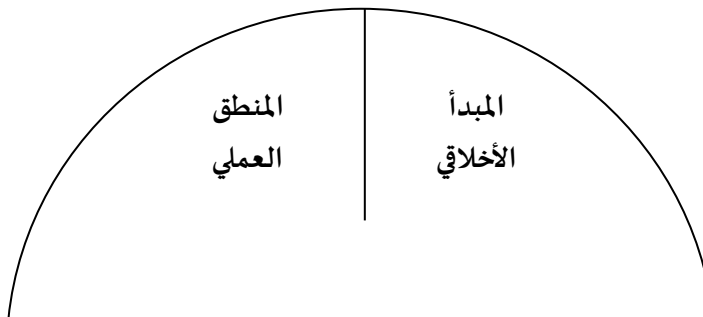
5.3 الصناعة

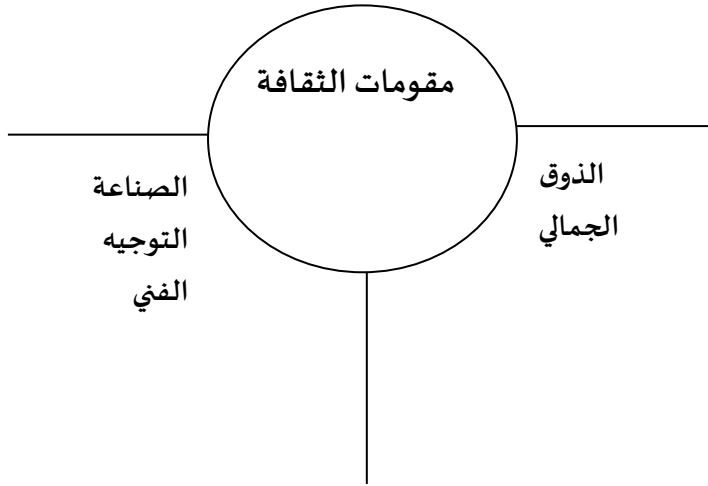
إذا سلّمنا بفكرة متى تمكن المجتمع من توفير الإمكانيات المادية والمعنوية تحققت الحضارة، ومتى فشل في ذلك انحطت الحضارة، وفقدت فعاليتها، يبرر هذا التسليم بأن المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي والمنطق العملي، تحتاج هذه عناصر إلى وسيلة لتجسيدها؛ وهي ما يعبر به مالك بن نبي بالصناعة أو التوجيه الفني كونها ضرورية لبناء الثقافة، وتشمل عالم الأشياء، وتضم مختلف الفنون والحرف وكل ما هو تطبيقي؛ وتعد أداة لكسب العيش والاستمرار في الوجود من جهة، والمحافظة على كيان المجتمع من جهة أخرى. فبقدر ما تزدهر الفنون والحرف في البلاد بقدر ما ترتقي الثقافة، ويعزز ذلك القدرات الفردية على التفاعل الاجتماعي. وكان قد ربط ابن خلدون الثقافة واستخدمها مرادفة للصناعة أي ما يصطلح عليه حالياً بالتكنولوجيا فأصبح المفهوم أكثر اتساعاً في الوقت الراهن. قول بن نبي "والراعي نفسه له صناعته، ومما يدلنا على القيمة الاجتماعية لهذه الحرفة المتواضعة الزهيدة، أن لها مدرسة أهلية في فرنسا بمدينة (رامبوليه) إحدى ضواحي باريس، فلو رأينا الراعي الخريج في هذه المدرسة والراعي العربي يقود كل منهما قطيعه لعلمنا أي فرق بينهما؟" (بن نبي، 1984، صفحة 88)

وفي ذات السياق يحرص على ضرورة توجيه العمل، مادام كل عمل يرتبط بآليات لتحقيق أهداف وغايات، إن تكاثف الجهود يساهم بدون شك في إحداث نقلة نوعية، وتأسيس بيئة جديدة تساهم في تحسين حياته بشكل أفضل. فالعالم الإسلامي بحاجة إلى تفعيل هذا التوجيه، فإذا حاولنا تحليله -بقصد التمثيل لا الحصر- على مستوى العملية التعليمية، وطرائق التدريس داخل المؤسسات التربوية بالدول العربية والإسلامية، فنلاحظ استخدام أساليب كلاسيكية قائمة على الحشو والتلقين؛ وتسبب في إرهاق المتعلمين بأنشطة تعليمية كالقروض والاختبارات والواجبات المنزلية، والتي لا تفيده في واقعه العملي، مما يخلق لديه الضجر والنفور. ويصبح الالتحاق بالمدرسة مجرد أمر إلزامي، وينعكس ذلك على ردود أفعاله، كصورة التلميذ الذي تلقى درساً حول الأخلاق أو النظافة، ولكنه سرعان ما يغادر قاعة الدراسة، تجده قد انفصل سلوكه العملي عن المدرسة، فيرمي الأوساخ والقاذورات في

غير أماكنها المخصصة لها، ويتلفظ بألفاظ سيئة و غير لائقة. وهكذا تصبح مثل هذه المؤسسات عقيمة لا تؤدي وظيفتها، ولا تحقق أهدافها لأنها عجزت عن صناعة الفرد المبدع، بل وأن كثيرا من الطاقات والمواهب أُهدرت، وقُتلت بداخلها حرية الفكر وروح التجديد. ولإزالة هذه الفجوة، أصبح من الضروري إعادة النظر في المناهج الدراسية والموارد التعليمية لتناسب مع واقع المتعلم المسلم،

وفي المقابل تُولي كثيرا من الدول الغربية على غرار كندا، فنلندا واليابان..الخ اهتماما بالغا بالأنظمة والأساليب التعليمية النشطة التي ترفع من التحصيل العلمي ، ومن جودة التعليم بما يتناسب وطموح، وواقع المتعلم.





الثقافة = المبدأ الأخلاقي + المنطق العملي + الذوق الجمالي + الصناعة (التوجيه الفني)

6. تعايش الثقافات

بعدما سيطرت النزعة التقنية على مختلف مناحي الحياة، أصبح العالم قرية صغيرة في ظل التحولات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية. فلم تعد فكرة التعايش الثقافي - خيارا بل أضحت ضرورة حتمية لتقريب المسافات الفكرية وتنوعها، مهما بُعدت الجغرافيا فلن تشكل عائقا أمام تأسيس بيئة ثقافية متنوعة. بدليل دعوة الهيئات الدولية والمنظمات العالمية للحوار الثقافي. إن الهدف من وراء تكوين منظمة اليونسكو مثلا خلق ثقافة إنسانية مركزها الإنسان العالمي، وتشكيل ملامح للتبادل الثقافي من خلال اندماج المكونات الثقافية المختلفة.

أيضا كان عقد مؤتمر باندونغ في أبريل 1955 كحدث تاريخي لمساعي إحراز إنجاز ثقافي على صعيد العلاقات الإفريقية الآسيوية. والأهم من ذلك النظر في مصير الدول المتخلفة بامتدادها الجغرافي من طنجة إلى جاكرتا، وبالرغم من أن طابع المؤتمر صبغته سياسية إلا أنه تناول القضايا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وساعد على تعزيز التعاون بين المشاركين.

فلا يمكن إغفال الصراع السياسي على الساحة الدولية ولاسيما ذلك القائم بين أمريكا، روسيا واليابان، غير أن الأمر لم يعيق عملية تعزيز جسور التواصل، والتعايش أو ما اصطلح عليه بنبي بالتركيب الحضاري في إطار رؤية حضارية موحدة. بالرغم من التأثير السلبي للخلافات السياسية على العلاقات، لأن الحاجة إلى التفاعل والتواصل تفرضها عوامل تاريخية وجغرافية.

فالثقافة في طابعها الأخلاقي والتاريخي، صارت تتشكل اليوم في إطار تخطيط عالمي؛ (بن نبي، 1984، صفحة 121) لأنه لا يمكنها تحقيق الاكتفاء الفكري الذاتي بمفردها، فحتمًا ستستمد طاقتها من غيرها. وكل هذا ما يدعو إلى الانفتاح على الآخر حتى تصطبغ الثقافة بطابع كوني؛ مما يسهل فعل التعايش والحوار والتواصل وفق قيم مشتركة نابعة من الإرادة الإنسانية التي تحمل أبعادا حضارية.

في ذات السياق أولى اهتماما للفرد للمسلم، وتفاعله مع الغير، والسعي في سبيل التأسيس لحوار ثقافي وحضاري عالمي مؤمنا بالتباين الفكري والثقافي الظاهر بينه وبين الآخر، وهذا التمايز يُعد منطلقا فعليا لتأسيس تواصل ثقافي مشترك. لاسيما وأن فكرة التعايش الحضاري مرهونة بالنمط الذي تعكسه الثقافة في منعطف مسارها الراهن من التطور، و هو بمثابة مرحلة أولية ضرورية لتحقيق فعل التعايش.

ولسنا نبالغ إذا أقررنا أن المثقف العربي المسلم أمام تحديات على مختلف المستويات، ولمواجهتها يحتاج إلى كثير من الوعي في قراءة ماضي الثقافة العربية الإسلامية التي داع صيتها، وشاع بريقها في مصر والعراق وقرطبة وكل البلاد المجاورة؛ من خلال ما أحرزته من علوم عقلية وروحية. فمن الإنصاف النهوض بها وتصنيفها في مصاف الثقافات العالمية الكبرى.

7. الخاتمة

رصد مالك بن نبي الأزمة الثقافية، ونظر إليها نظرة تشخيصية؛ حيث انشغل بمشكلات عصره وكان فكره ثريا في إبداع مشاريع فكرية وحضارية. معتمدا على الفهم العميق للمشكلات التي يعانها

العالم الإسلامي لعلّ أبرزها مشكلة الثقافة كفعل وأكد على دورها في الارتقاء بالفرد والمجتمع، كونها ترتبط بالسلوك، ودعا إلى إحاطتها بسياج قوي صانعه الإنسان المسلم، من خلال تهيئة الظروف الملائمة لمعالجة قضايا التخلف، فالثقافة في نظره تغطي أسلوب الحياة في مجتمع معين، ومن جهة أخرى فهي تتعلق بالسلوكيات الاجتماعية التي تميز حياة الفرد. فالأمر لا يتعلق بتحليل لغوي للمفهوم، بل بتسليط الضوء على الروابط بين الخلفيات التاريخية لمصطلح الثقافة وبين مسار الأفكار. وقد استخلصنا من هذه الورقة البحثية:

- 1/ يقتضي واقع العالم الإسلامي اليوم تصويب النظرة إلى مفهوم الثقافة كسلوك فردي تربوي واجتماعي؛ لأن تطهير المفهوم من اللبس يساعد على الارتقاء بها.
- 2/ ضرورة الوعي بمقومات الثقافة ودعائمه بدءا بالمقوم الأخلاقي الذي يعبر عن تأثير السلطة الأخلاقية؛ حيث تتطلب الثقافة الفعالة وجود روح أخلاقية لرعايتها وتوجيهها.
- 3/ الذوق الجمالي ينعكس الحس الجمالي على السلوك، ويؤد طاقات فعالة في الأداء والإبداع والابتكار، وانطباعات إيجابية. ويطلع الثقافة بطابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها.
- 3/ المنطق العملي ويعني ضرورة التوجه نحو الممارسة والتركيز على الجوانب العملية، وتسطيها والتخطيط لها لتحقيق الأهداف بعيدا عن الأفكار النظرية والمجردة.
- وعصارة القول أن كل تقدم تحرزه الثقافة يساهم بدون شك في البناء الحضاري. لأن الحضارة تتضمن في جوهرها قيم ثقافية مُجسدة.

قائمة المراجع

- 1- Dennis Koch, The Concept of Culture in the Social Sciences, translate by Munir Al-Saidani, , Arab Organization for Translation, Beirut, 2007.
- 2- Malek Bennabi, The Problem of Culture, Dar Al- Fikr Damascus, 1984.
- 3- Malek Bennabi, Conditions of the Renaissance, Damascus, Dar Al-Fikr for Printing and Distribution, 1986.
- 4- Malek Bennabi, The Birth of Society, Dar Al-Fikr , Damascus , 1986.
- 5- Malek Bennabi, For Change, Dar Al-Fikr Damascus, 1995.

- 6- Malek Bennabi, Damascus Councils , Dar Al-Fikr, Damascus,2002.
 - 7- Malek Bennabi, The Problem of Ideas in the Islamic World, Dar Al-Fikr, Damascus ,1988.
 - 8- Saliba Jamil, The Philosophical Dictionary, Lebanese publishing , Beirut. Lebanon, 1982.
-
- 1- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار النشر اللبنانية، بيروت، 1982.
 - 2- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، المنظمة العربية للترجمة، 2007.
 - 3- مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، 1986.
 - 4- مالك بن نبي، مجالس دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، 2002.
 - 5- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، 1988.
 - 6- مالك بن نبي، مكلة الثقافة، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، 1984.
 - 7- مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، 1995.
 - 8- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، 1986.